MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرق والمَغرب للشُّؤون السِّجنيّة

عِنْدَ ٱلامْتِحان...

من ذكريات طالب معتقل

سيف الإسلام عيد

الدفتر الثّاني

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

UMAM
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

بَيْضاء في الأصْل

سيف الإسلام عيد

عِنْدَ ٱلامْتِحـان...

من ذكريات طالــب معتقـل

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

MENA PRISON FORUM
مُنْتدى المَشْرِق والمَغْرِب للشُّــؤون السِّــجْنيَّة

Umam للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

منتدى المشرق والمغرب للشّؤون السجنيَّة
[مشروع بتوقيع **أمم للتوثيق والأبحاث**]
دفاتر المُنْتَدى [٢]
بيروت، ٢٠١٩/٢٠٢٠
هاتف: ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١ +
صندوق بريد: ٢٥ ـ ٥ الغبيري، بيروت ـ لبنان
مُراجعة وتدقيق: صلاح الجِيلاني

Documentation & Research

www.umam-dr.org | www.menaprisonforum.org

إنَّ الآراءَ الوارِدَةَ في هذه المَطْبوعَةِ التي كان إنْجازُها ونَشْرُها بِدَعْمٍ مِنْ «مَعْهَدِ العَلاقاتِ الثَّقافيَّةِ الخارِجيَّة (ifa)» ــ (المُمَوَّلِ مِنْ وِزارَةِ الخارجيَّةِ الألمانيَّة) ــ إنَّ هذه الآراءَ تُعَبِّرُ، حَصْرًا، عَنْ وُجْهَةِ صاحِبِها وناشِرِها، وعَلَيْهِ فهي لا تُلْزِمُ، بِأيِّ شَكْلٍ مِنَ الأشْكالِ، المَعْهَدَ، ولا تَعْكِسُ، بالضَّرورةِ، مُقارَبَتَهُ المُؤَسَّساتيَّةَ مِنَ المَسائِلِ مَوْضوعِ البَحْثِ والرَّأْي.

Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

عند الامتحان...

هــذا الدَّفْتَــرُ، الثّانــي مِــنْ **دَفاتِــر مُنْتَــدى المَشْــرِقِ والمَغْــرِبِ للشُّــؤونِ السِّــجْنِيَّة**،[1] لا يَحْتــاجُ إلــى أيِّ تَقْديــمٍ علــى الإطْــلاق: فَعُنْــوانُ هــذِهِ الشَّــهادَة، ولاسِــيَّما العُنْــوانُ الفَرْعِــيُّ، وَ«مِصْرِيَّــةُ» صاحِبِهــا، سَــيْفِ الإسْــلام عيــد،[2] كَفيــلانِ بإنْزالِهــا المَنْــزِلَ الــذي يَليــقُ بهــا مِــنَ الأدَبِ السِّــجْنِيِّ الطّالِــبِيِّ بِلِحــاظِ الرَّحِــمِ المَوْصولَــةِ بَيْــنَ طُــلّابِ مِصْــرَ وَسُــجونِها... ولكِــنْ، وإذْ هــو كذلــك ــ إذْ لا يَحتــاجُ هــذا الدَّفْتَــرُ إلــى تَقْديــم، فَأَقَــلُّ حَــقٍّ هــذِهِ الشَّــهادَة ــ أقَلَّــهُ أيْضًــا إغْــراءً بِمُطالَعَتِهــا ــ أنْ تُمْــدَحَ لِحَبْكَتِهــا التــي تَصْطَنِــعُ مِــنْ إصــرارِ الطّالِــبِ علــى ألّا يَفوتَــهُ الامْتِحــانُ مِحْنَتَــهُ السِّــجْنِيَّةَ بامْتِيــازٍ دونَ ســائِرِ المِحَــنِ الأُخْــرى التــي عَبَــرَ بِهــا وَراءَ القُضْبــانِ وعَبَــرَتْ بِــهِ، وأنْ تُمْــدَحَ لِمــا تَأْتــي بِــهِ مِــنْ دَليــلٍ علــى أنَّــه: عِنْــدَ الامْتِحــان...

مُنْتدى المَشْرِق والمَغْرِب للشُّؤون السِّجْنيَّة

---

(١) وهــيَ سِلْسِــلَةُ كُتُــبٍ وَكُتَيِّبــاتٍ، لا دَوْرِيَّــةَ مُنْتَظِمَــةٌ لهــا، مَدارُهــا علــى المَسْــأَلَةِ السِّــجْنِيَّةِ فــي أبْعادِهــا الشَّــخْصِيَّةِ والعامَّــة.

(٢) مِصــريٌّ مــن مواليــد أيّار/مايــو ١٩٩٥. باحِــث فــي شُــؤونِ الحَــرَكاتِ الإسْــلاميَّةِ والتَّحَــوُّلِ الدّيمقراطــيِّ فــي الــدُّوَلِ العَرَبيَّــة. ماجســتير فــي العلــوم السياســية والعلاقــات الدوليــة مــن «معهــد الدوحــة للدراســات العليــا».

بَيْضاء في الأصْل

عَن دَفْـتَـرٍ... وصَاحِـبِـه

بقلم د. خليل العناني

هـذه لَيسـت مُقدِّمـةً، وإنمـا خاطِـرَة، وإنْ شِـئتَ قُـل، شـهادةً علـى هامـشِ الدَّفـتـرِ أو الكِـتاب الـذي بيـن أَيدِيـنا.

وهـي شـهادةٌ لا تَـنـبُعُ مـن مَضمـونِ الكتـابِ فحَسْـبُ، وإنمـا مِـنْ علاقـة كاتـبِ هـذه السُّـطورِ بصاحـبِ الدَّفتـرِ التـي تَمتـدُّ الآن لحَوالَـي أربـع سـنوات. فـمَعرِفَتي بالأسـتاذ سـيف الإسـلام عيـد تعـودُ لأواخـر عـام ٢٠١٧ حيـن كنـتُ أُعِـدُّ دراسـةً عـنِ السُّـجناء السياسيِّـين فـي مصـر، خاصَّـةً الشـباب الذيـن تـمَّ اعتِـقالُهم عَقِـبَ انقـلابِ الثالـث مـن يوليـو ٢٠١٣، وكان سـيف أحـدَ الشـبابِ الذيـن تَعـرَّفتُ عليهـم عبـر الفضـاء الإلكتـروني، وأَجرَيـتُ معـه بعـضَ المُقابـلاتِ حـول تَجرِبَـتِه السِّـجنِيَّة. وعلـى مـا أذكـرُ، فقـد كان وَقـتَها قـد أَنهَـى لـتَوِّهِ فتـرةَ الاعتـقال، وعـاد لاسـتِكمالِ دراسَـتِه الجامعيَّـة. بعدهـا أصبـحَ سـيف باحثًـا بـ«معهـد الدوحـة للدراسـات العليـا»، حيـث أَشـرفتُ علـى رِسـالَتِه للماجسـتير، وعَمِـلَ معـي، ولا يـزال، فـي عِـدَّةِ مشـاريعَ بَحثِـيَّةٍ ناجحـة.

لـن أَستَرسِـلَ، هنـا، فـي الحديـث عـن علاقتـي البَحثِـيَّة والشـخصيَّة بـسَيف، فـلذلكَ حديـثٌ آخَـر، ومُناسَـبةٌ أخـرى قـد يَأتـي وقـتها. ولكـنَّ حَديثـي هُنـا عـن مُذكِّراتِـه، أو بالأحـرَى، أيَّامِـهِ ولَيالِيـهِ التـي قضاهـا

خَلْفَ القُضبان، على مَدارِ عامٍ وثَمانيةَ عَشَرَ يومًا، وَثَّقَتْها مَشاعِرُه وتَجرِبَتُه في حِينِها.

يكتبُ سيف عن تَجربته السِّجنِيَّة في هذا الدفتر، وإنْ كان في الحقيقة يكتبُ عن تجربةِ جِيلٍ بأَكمَلِهِ سرَق الاستبدادُ أَحلامَهُ وعُمرَه، ولو لبَعضِ الوقت، من أجل تَثبيتِ حُكمِ جِنرالٍ عَسكرِيٍّ استَولى على السُّلطة، ويَسعَى جاهِدًا للبقاءِ بها حتى آخِرِ نَفسٍ في صَدره. وهي تَجرِبَةٌ أقرب لشهادةٍ مُوثَّقةٍ على واحدٍ من أسوأ العُصور السُّلطَوِيَّةِ التي مَرَّتْ على مصر خلال تاريخها الحديث. وهي أيضا شهادةُ إدانةٍ لمجتمع، وليس فقط لنِظامِ حُكمٍ، قَبِلَ قِطاعٌ مُعتَبرٌ منه، أن يَقضِيَ صَبِيٌّ لم يتجاوزِ التاسِعَةَ عَشَرَ من عُمرِه ــ شُهورًا وأيَّامًا خلف قُضبانِ زِنزانةٍ نَتِنَة، وأنْ يُمارَسَ ضِدَّهُ أبشعُ أنواعِ التعذيبِ النَّفسِيِّ والجَسدِيّ، ليس لذَنبٍ سوى، وتلك هي المُفارَقة، الدِّفاعِ عن حَقِّه، وعن حَقِّ ذلك المُجتمَع، في الحُرية والكرامة والعدالة.

أُقلِّبُ صفحاتِ دفتر السِّجن، أقرأ صفحةً أوِ اثنتَين في اليوم، أُقاوِمُ دَمعةً تكاد أنْ تَسقُط، أتوقَّفُ لأستجمِعَ قُوايَ وقُدرَتِي النَّفسِيَّةَ على المُواصَلة. يَضغطُ سيف، بلُطفٍ، سائلًا: متى تَنتَهي من المُقدِّمة؟ أتهرَّبُ منه تارةً بالانشِغال، وأخرى بالتَّعبِ والإرهاق. آخُذُ وقتًا كَيْ أستوعِبَ كَلماتِه، أتصفَّحُ صورةَ السِّجن، أو بالأحرى السُّجون، التي تَرسمُها كلماتُه، وتَنقِلُها مَشاعِرُه، أستَغرِبُ قُدرَتَه على الكتابة وَسطَ هذا الكَمِّ الهائلِ من الهَمِّ والعذاب الجسديِّ والنَّفسِيّ، يُدهِشُنِي صُمودُه، وتُحرِّكُني كلماته التي كُلَّمَا قَرأتُها، وَجدتُّ نَفسي أمام رَجلٍ يتحدَّثُ بحِكمَة، وليس شابًّا لم يَبلُغِ العقدَ الثاني من عُمره، شابًّا نضَج قبل الأوان، تحتَ وَطأةِ تَجرِبَةٍ قاسِيَة، أو كما يَنقِلُ أحدُ

عناوينِ دَفتره: «شَبابٌ يَنْضَجُ في بَراثِنِ المُعتَقَل». ولو أدركَ الطُّغاةُ ما يَفعلُه السِّجنُ في نُفوسِ الشَّباب، كما حدَث مع سيف، لتَوقَّفوا عنِ اعتِقالِهِمْ وظُلمِهِم، ولكنَّهم قَومٌ لا يَفقهون!

أخوضُ أكثرَ في قِراءةِ دفتر السِّجن، فأكتشفُ عوالمَ أخرى، تَنقِلُها كلماتُ سيف، أو بالأحرى، مَشاعِرُه، ونَفسِيَّتُه المُتأجِّجَة، وروحُه العنيدة الثَّائرة.

أقفُ أمام إحدى مُفارقاتِ تَجرِبَتِه السِّجنِيَّة، وهي كثيرة، وذلك حين يُصِرُّ سيف على أداءِ امتحان الجامعة بعدَ اعتِقالِه بشُهور، وذلك حتى لا يَفوتُه عامُهُ الدِّراسِيُّ الأوَّل بالجامعة. أشعرُ وكأنني أمامَ مَشهدٍ مَسرحِيٍّ بامتيازٍ تمَّ اقتِباسُه مِنْ إحدى الرِّواياتِ الكلاسيكِيَّةِ لدوستويفيسكي أو تولستوي أو أوروبل. تَخيَّلْ مَعِي: صَبِيٌّ يتمُّ اختِطافُه من أحضانِ أبوَيْهِ، مَعصوبَ العَينَين، يُلقَى به في عربةٍ مُصفَّحة، يَحوطُه جنودٌ مَدَجَّجُونَ بأَعتى أنواع السِّلاح، لا يُرى سوى أعينهم، يَتبعُهُم رَهطٌ آخرُ من سياراتٍ مُشابِهَة، يَتحرَّكونَ جميعًا بفَخرٍ، وكأنهم فازوا بصَيدٍ ثَمينٍ لتاجرِ مُخدّرات، أو مُجرمٍ مُتمَرِّس، أو إرهابيٍّ أزهَقَ أرواحَ بريئة. يُلقَى بالصبِيِّ مع العشرات غيره، أكبر وأصغر سِنًّا، في إحدى الزنازين، يَجري تَعذيبُه بكافَّةِ الأشكال، نَفسِيًّا وجَسدِيًّا، يُحاوِلونَ كَسرَهُ مَعنوِيًّا، يَنظرُ إليهم بثقةٍ وفي تَحَدٍّ، ويُطالِبُهُم، بعد كلِّ هذا، بأداءِ أوَّلِ امتحانٍ له بالجامعة!

يُصِرُّ على طَلَبِه، فيَرضَخُونَ، ويَمتحِنُ ويَنجَح!

لم يَنجحْ سيف في امتحان الجامعة فقط، ولكنّه نجَح أيضًا، وهذا هو الأهمّ، في امتحانِ الحياة. لم تَنكسِرْ إرادتُه على نَحوِ ما أرادوا، ولم يَخضَعْ لمَنطِقِ الطَّاغِيَةِ ورِجالِه، ولم يَستَسلِمْ لإجرامِهم،

ولكنّه، على العكس من كُلِّ ذلك، تَحدَّاهُم وكتَب حكايتَه. وهي وإنْ كانت حكايةً واحدةً من بين حكاياتِ آلافِ المُعتقلين في سجون الجنرال الطاغية، إلَّا أنها حكايةٌ نَقلَتْها مشاعر صادقة، وقلمٌ مُبدِعٌ، وروحٌ مُلتهِبَةٌ ثائرة ــ حكايةُ شَعبٍ يَنتظِرُ خَلاصًا قد يأتي به سيف وأقرانُه من الشَّبابِ الأحرار.

شكرًا سيف، وشكرًا لكُلِّ شابٍّ ورجلٍ وامرأة، يَقبَعونَ في سُجونِ الطاغِيَة، دِفاعًا عن حُرِّيّتهم وكرامتِهم وإنسانيتِهم!

نَـبْـشٌ في الذّاكـرة

للذِّكريـاتِ أشـباهٌ تتداعـى، والشَّـجَنُ يُثيـرُه حتّـى سـكونُ الليـل، وربَّمـا نسـيمٌ مـارٌّ يُكـرِّرُ لـك شـعورًا لا تـزالُ تَدْفَعُـهُ عنـك مـذ كان ـــ شـعورَ الوَحشـةِ والغربـة، وغربـةٌ فـي الوطـن أشـدّها!
وأنـا علـى الموعـد كلّ عـام، مـع كل قـدومٍ لشـهرِ أيّار/مايـو، حيـن يتأهّبُ الطـلّابُ لامتحانـاتِ نهايـةِ العـامِ الجامعي.

أتذكّـرُ بهجـةَ الشـابِّ وآمالَـه التـي يَخْـطُ بهـا أعتـابَ الجامعـة، شَـغَفَهُ، حُبَّـهُ للعِلْـمِ وسَـعْيَهُ لأن يُزيـلَ غشـاوةَ الجهـلِ التـي تُـقاومُ للبقـاء.

تلـكَ هـي قصتـي التـي حدثَـتْ فـي مسـتهلّ عامِـيَ الأوّلِ فـي الجامعـة! فقـد قضيـتُ نِصْفَـه الثانـي معتقـلًا!
ولـم أتخيّـل أنْ يضيـعَ عـامٌ كهـذا هـدرًا، وأنْ يُحـالَ بينـي وبيـن دخـولِ امتحانـاتِ نهايـة العـام!
وتلـك هـي قصّـةُ الكثيريـنَ غيـري مَـنْ لا جُـرْمَ لهـم إلّا أنهـم يُحاولـون القيـامَ بمُهِمّتِهِـم الأسـمى فـي الحيـاة: طَلَـبِ العلـم... لكنّهـم فـي بـلادِ الظلـم!
ويبقـى الرّابـطَ المُشْـتَـرَكَ بيـن كُلِّ تلـكَ القصـصِ شَـخْصُ طالـبِ العلـمِ

الـذي يُعْتَقَـلُ فـي بـلاد الجَـوْر، ولا يَيْـأسُ، ولا يفتـرُ فـي السَّـعْيِ حتّـى ولـو كلَّفَـهُ الأمْـرُ حياتَـه.

فـي السِّـجن، وراءَ قضبانِـهِ وجدرانِـهِ، لـم أتـوانَ لحظـةً عـنِ التفكيـر فـي كيفيـة تحصيـل العلـم، واعتبـرْتُ اعتقالـي فتـرةً أخلـو بهـا مـع نفسـي، وكتبـي ومـع كُلِّ صاحِـبِ تجربـةٍ قابَلْتُـه فـي كلّ زنزانـةٍ مـررْتُ بهـا...

شبابٌ يَنْضَجُ في بَراثِن المُعْتَقَل!

كان ذلك بعدما فرغتُ من أداء امتحانات الفصل الأوَّل في كليَّة الاقتصاد والعلوم السياسيّة، عائدًا إلى بلدتي، حيث وَجَدْتُني أُساق إلى ظلمات المعتقل لا إلى أحضان البيت!
هناك عانيت أنواعًا من الفَقْدِ والغربة، كان أقساها عليَّ فَقْدُ الأهْلِ والأحباب، وفَقْدُ الأمَل الذي لاحَ لي بعيدًا...
ومع اقتراب امتحانات نهاية العام شُغِلَ ذهني عن أي شيء سواها، وخصوصًا أنَّهم يُحِبّون أن يتهكّموا ويتلاعبوا بآمالك التي تركن إليها حين تكون في قبضتهم ــ تلك الآمال التي يخافون منها أيَّما خوف وأنت حرّ تسعى في الوطن المزعوم!

صارت عادتي اليومية أن أُلِحَّ في طلب أدائي للامتحانات؛ حتى أبرموا لي أمرًا، وتحديدًا في يوم الجمعة، الثاني من شهر أيار/مايو.
فوجئت يومها بصوت عالٍ يُنادي باسمي في كلمات صاخبة: «سيف الإسلام، اجهز. ترحيل. امتحانات» كانت تلك الكلمات ثقيلة على أذني لها وقع الكهرباء التي رَحَّبَتْ بي في أول أيام الاعتقال.

قمت فَزِعًا من نومي، هَرِعًا أُجَهِّز أغراضي، وأُعِدّ كتبي وأقلامي وكسرات خبز أتقوّى بها على طول الطريق، وليس للمعتقل شيء سواها في هذا السفر غير المألوف. فما يُسْمَح له بشيءٍ إلّا ببعضٍ من لباسه البالي، وشيءٍ يسير من الطعام، وبعضٍ من الكتب التي تُراجَعُ أمنيًّا على أي حال...

خرجتُ من زنزانتي في لباسي الأبيض الناصع، يقتادني شرطيٌّ رديءُ الهيئة، إلى الزنزانة المتنقلة الزرقاء، (عربة الترحيلات)، ــ خرجت لا أعلم مقصدي.
تذكرت حينها ما درسناه من أن القانون الدوليَّ يكفل لأسير الحرب أن يعلم مَقصَد ترحيله!
لكن يبدو أنَّ جرمي، عندهم، أكبر من ذلك. كنت في تلك العربة وحيدًا إلّا من الحراسة عن يميني وعن شمالي، يُزَيِّن يدي ذاك القيد الحديديُّ الغاشم، ولا أملك سوى الابتسامة التي تُحبط كبرياء السجّان.
تحرَّكت العربة، وأصوات المحرِّكات تعكّر صفو تجلّي الصباح، وهدوء الطبيعة المعهود في يوم الإجازة الأسبوعية. حاولت السؤال: «إلى أين المسير؟»، فأجابوني: «بالطبع إلى امتحاناتك يا نابغة زمانك!»...
لم أجد مُؤنسًا في هذا الطريق سوى كتاب اللَّه، وكأن اللَّه يُراسلك من خلاله... قرأت قول اللَّه: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلونَ خَبير»، فأحْسَستُ بعظم المقصَد وسموّ المهمَّة. انتهيت من قراءتي لآيات كتاب اللَّه، ووقفت أنظر من نافذة العربة المغلَّفة بالأسلاك... وكأنَّه يُراد بِكَ ألا ترى الحقيقة إلّا مُقَطَّعَةَ الأوصال، غير مكتملة!

إنه الطريق الذي اعتدتُّ رؤيتَه أثناء سفري للكلِّيَّة، وعلى جانبَيه أراضٍ خضراءُ مدّ البصر يستكين إلى النظر لها المتأمِّلُ، ولكنَّ الحالة غير الحالة، والهيئة غير الهيئة...
في الطريق تَلَهَّيْتُ بالنظر كلّ حين من النافذة الصغيرة... رأيت الناس على نمط لم أعهده، كأنهم يائسون يسيرون خاضعي الرقاب، هالاتهم لا تُؤذن بغيث قريب! لعلّ ذلك لأني أنظر بعينٍ غير التي عهدت أن أنظر بها.

حاولت أن أُسَلّي نفسي بالقراءة، فوقع الاختيار على كتاب من كتب التاريخ يستقطع بعضًا من القصص وَيُحَلّلها، وأراد القدر أنْ أبدأ بقصة «فتنة خلق القرآن» التي تحكي عن مقاومة الإمام أحمد بن حنبل، رضي اللَّه عنه، وكيف صَمَدَ في وجه الظالم دفاعًا عن العلم الصحيح، ولم يَبِعِ الحقيقة بهوى السلطان، ووقف شامخًا إلى أن انتصر الحقُّ على يديه، وخلّده التاريخ، فشعرت بأنَّ هذه الرحلة لَأَمْرٌ جلل؛ وقد حدث ما خِلته... سرت بعمق الإيمان ووعي الحقيقة إلى مقصدي الذي لم أعرفه.
قَطَعَ هذا التَّفكيرَ توقُّفُ العربة أمام أحد المساجد الصغيرة ليؤدّي الحرّاسُ صلاة الجمعة عسى اللَّه أن يتقبل منهم! وصلّيت الجمعة ظهرًا وحدي وأنا مقيّد داخل العربة.

سارت العربة بنا في طريق جديد لم أسلكه من قبل أشبه بالصحراء، تكتنفه الهضاب من كل ناحية. وَصَلْتُ إلى مكان غريب عجيب... هناك رأيت لافتة تدلُّ على أن هذا المكان هو أحد السجون العمومية التي لم أكن لأتخيّلُ يومًا مِنَ الأيام أنّي سأدخلها ولو حتى زائرًا!

رفضت النزول أو التوقيع على أيِّ ورقة حتى أُبلِغَ أهلي بمكاني، وأصررت على ذلك حتى استُخْدِمَت القوةُ لإجباري على النزول، ولم تُجْدِ حِيَلُهم الغبيّةُ بل انطلت حيلتي، وأبلغتُ أمّي عن طريق هاتف أحدهم نظيرَ مبلغ من المال.

تحدّثتُ إلى أبي في عشر ثوانٍ فقط. لم يسمع منّي سوى كلمة واحدة: «أنا بخير والحمد لله وصلت إلى سجن...» في صوت بدا عليه الإحساس بالظلم الشديد.

حامي القَـوْمِ جـاهِـلُهُم

هـا أنـا فـي مـكان مجهـول جديـد... فـي جنـوب البـلاد التـي أعيـش فـي شـمالها... زرت هـذه المدينـة قبـل ذلـك بشـهور فـي رحلـة مـع أصدقائـي نفتـش عـن جمـال الطبيعـة، وإذا بـي، بعدهـا بشـهورٍ قليلـةٍ، أكتشـف فـي المدينـة ذاتهـا قبـح الظلـم ووحشـته! حقًّـا تلـك السـجون قُبـورٌ تُدْفَـنُ فيهـا كل معانـي الإنسـانية، وتُـطْمَسُ فيهـا البـراءة، وتتلاشـى فيهـا أقـلُّ معالـم التفـاؤل!

لا أنسـى ذلـك الشـرطيَّ الـذي تكفَّـل بتفتيشـي قبـل الدخـول إلـى مُسْـتَقَرِّيَ الثانـي. كان لديـه مقـدارٌ زائـدٌ مـن ثقـة الجاهـل بنفسـه وعقلـه، ولكـنَّ مِثْلَـهُ جـمٌّ غفيـر مبثوثـون فـي محطّـات المواصـلات العامـة يلتمَّسـون أيَّ شـابٍّ بهيئـة طالـب، وحبَّـذا لـو كان حاملًا كتابًـا، ليفيضـوا عليـه مـن التعنُّـت والحنـق الـذي يقـضُّ مضاجعهـم مـن أولئـك المتعلِّميـن المثيريـن للمتاعـب!
وهكـذا أفْـزَعَ صاحِبَنـا مَنْظَـرُ الكُـتُبِ برفقتـي، فصـار يُقَلِّـبُ فيهـا يمينًـا ويسـارًا، ولا يـدري شـيئًا ممّـا يحمـل، وراح يسـبُّ التعليـمَ والعلـم وحامليـه، وفوجئـت أنَّـه يحمـل الكتـب معكوسـة!
رأى كتبًـا باللغـة الإنكليزيَّـة فهـاج مُتهكِّمًـا؛ لا لشـيء إلا ليسـترَ

جهلَه الذي ينخرُ في كبريائه ويُشْعِرُه بالنقص كلما رأى متعلِّمًا أو مثقَّفًا.

وبعدما صرفني ذلك المُفَتِّشُ الثّقافِيُّ سُحِبْتُ في دهاليزَ متداخلةٍ أسلمتنا إلى ردهة تتفرَّق على جانبيها المحابس.
وكان أوَّلُ مَنْ لقيتُ مُعْتَقَلًا طويلَ القامة، ضخمَ الجثة، طويل اللحية، وبابتسامة مطمئنة أَوْمأ إليّ ليُعلمني السجّان أنَّني، في هذا المكان، سأمكث مع هذا الرجل الذي يُدعى «الشيخ وجدي» والذي ينادونه أبو أنس، وأنس هو ابنه الذي قضى نحبَه في «أحداث المنصّة»[1]... (ولأبي أنس ابن آخر لم يبرح عامه السادس عشر، وهو معتقل في سجن آخر يليق بنضارة عمره!).
كلّ ذلك يُقَصُّ عليَّ وأنا غارقٌ في مزيج من الصدمة والدهشة؛ لكنَّ كتابات الجدران تخطف النظر رغْما عنك... على جدران المعتقل يُفْرِغُ المحبوس ما عجز ذهنه عن تحمُّله.

طرحت نفسي على الأرض ألتقط أنفاسي وأستجمع ما ألمَّ بي، وما كِدْتُ أفيق من ذهولي حتى دعاني السَّجّان صائحًا بأنّي سأُنقل من هذه الغرفة المُؤنسة، طبقًا لمعايير السجون، إلى مكان آخر، وبِحَرَكاتٍ آليَّةٍ حَمَلْتُ أمتعتي البالية وكتبي رفيقةَ

(١) «أحداث المنصة» هي الأحداث التي وقعت في ٢٧ تموز/يوليو ٢٠١٣ حيث عمدت قوّات الأمن المصريّة، متوسِّلة بأساليب العنف المفرط، إلى فضِّ اعتصام رابعة العدويّة الذي تلا عزل الرئيس الراحل محمد مرسي، ما أدّى إلى سقوط عشرات القتلى والجرحى، ومن ثَمَّ وَصْفِ هذه «الأحداث» أحيانًا بـ«المذبحة»...

الحـقِّ الصامتـةَ التـي توحـي لـك بالتصبُّـر والجلَـد بمجـرَّد النظـر إليهـا، مـن أجل ما فيها أنا هنا، فالمسـتبدُّ عدوُّ الكتاب الأول!

ومـا أكثـرَ فَزَعَهُـم مـن حاملـي الكتـب وناشـري المعرفـة أينمـا حلُّـوا؛ فالمثقَّـف بالنسـبة إليهـم عَـدْوى تمشـي علـى قدميـن، لا يجـب أن يُتْـرَك حـرًّا طليقًـا بيـن النـاس؛ إنَّمـا شـأنه شـأن حامـل الطاعـون، أنْ يُعـزل بعيـدًا منفـردًا ويبـدو أنَّهـم تَوَسَّـموا فـيَّ ذلـك فأبرمـوا أمرهـم أن يُـلْـقوني في غَـياباتٍ أكـثر ظـلمةً...

بَيْضاء في الأصْل

في طَـريـقِ التَّـأْديـب

دفـع بـي السَّـجّان للسـير فـي ممـرّات مُعتمـة تفـوح منهـا رائحـة المظالـم! حتـى وصلنـا إلـى بـابٍ حديـديٍّ تعلـوه عبـارة مفزعـة: «عنبـر التشـهيلات».[1] مـا إن عبرنـا البـاب حتّـى وَجَـدْتُ علـى الجانبيـن زنازيـنَ مُرَقَّمَـةً علـى غيـر ترتيـب، ويبـدو أنَّ لـكلِّ رقـمٍ إشـارة يعلمونهـا فـي مـا بينهـم تدلُّـك علـى مـدى شـناعة التهمـة الموجهـة إليـك!

مـا إنْ فُتِحَ لـي بـابُ الزنزانـة رقـم ٧٢ حتـى دارت بـيَ الأرضُ، وصُعِقْتُ غَيْـرَ مُصَـدِّقٍ أنـي وصلـت إلـى هـذا المـكان الـذي طالمـا سـمعت عنـه: «زنزانـات التأديـب»! قبـرٌ يُدْفَـنُ فيـه الحَـيُّ، لكـن بشـرط أن يَتَـذَوَّقَ طعـم المـوت ويظـل حيًّـا!

---

(١) عنبـر التَّشْـهيلات: مُصطلـحٌ شُـرَطِيٌّ يُـرادُ بِـهِ مخـزن المُخَلَّفـاتِ الباليـة والحاجيّـات التـي لا لـزوم لهـا. تَوَسُّـعًا، اتَّخَـذَ عنبـر التَّشْـهيلات مَعْنًـى سِـجْنِيًّا يُقْصَـدُ بِـهِ المَعْـزِلُ الـذي يُـودَعُ فيـهِ السُّـجَناءُ غَيْـرُ المُتَعاونيـن مـع السُّـلُطاتِ السِّـجْنِيَّة.

مـن معانـي «التَّشْـهيلات» أيضًـا، مَكاتِـبُ القُـوّاتِ المُسَـلَّحَةِ القائِمَـةُ فـي المَطـاراتِ وفـي مَحَطّـاتِ السِّـكَكِ الحَديـدِ والمَنـوطُ بهـا تَسْـهيلُ إجْـراءاتِ المَرْموقيـنَ مِـنْ أفْرادِهـا وَخِدْمَتُهُـم، ولَعَـلَّ هـذا المَعْنـى هـو الأوْصَـلُ رَحِمًـا بِمَعْنـى «شَـهَّل فـي...» المُحَقَّـقِ فـي قَواميـسِ العربيَّـةِ والمَقْصـودِ بِـهِ «الإسْـراع فـي...»؛ (شَـهَّلَ فـي عَمَلِـهِ: أسْـرَعَ فـي إنجـازه).

كصندوق عرضُه متران، وطولُه بالكاد يكفيك واقفًا. أثاثه: دَلْوان، أحدهما لقضاء الحاجة، والآخر... إن كانت لك حاجة أخرى! مُعْتِمٌ لا يتسرّب إليه إلّا شعاعٌ آتٍ من قنديل يتوسّط المكان. هناك، حيث أنت وحدك، صادقِ العناكبَ والفئرانَ إنْ شئت! اقرأ عليهم كتبك إن استطعت! حدِّثهم عن حبِّك لوطنك وشغفك بآمالك إن أحببت! أو اصمت! اصمت حتى لا تستنفدَ طاقتك هباءً!

لكنّي لم أتمالك أنْ دفعتُ السَّجّانَ كالمجنون، وصِحْتُ بكلمات تحت لكماته: «أنا طالب ولست بمجرم! أخرِجوني من هنا! أعيدوني مع الآخرين!» ولكن هيهات. أُلْقيتُ مرتطمًا بالجدار وأُغْلِقَ دوني الباب.

تَحَسَّسْتُ موضعَ الدماء في وجهي، وجلست لا أُحَرِّك ساكنًا، وجال فكري في أمور كثيرة، وحَدَّثَتْني نفسي أنَّه لا سبيل للخروج سوى بالمقاومة، ولو بالقليل ممّا أملكه: صوتي! صار الهتاف سلاحي حتّى فَزِعَ مَنْ في المكان وجاؤوا مسرعين: «ماذا تُريد؟»

لم أرُدَّ سوى بعبارة واحدة: «الخروج من هنا!»... وما إنْ زادت النبرة حتّى فُتِحَ الباب وقادوني إلى غرفة ضباط المباحث، وهي غرفة فارهة مُجهَّزة بكلِّ سبل الراحة: مُكَيِّف هواء، طعام مجهّز، تلفاز وعسكري خادم.

دخلت على الضابط فسألني: «ما اسمك؟» أجبت: «سيف الإسلام، وأنا طالب علوم سياسيّة أتيت إلى هنا فقط للامتحانات ولا أستحقُّ هذه المعاملة الحقيرة» فردَّ ساخرًا: «بل تستحقُّ لأنك من "الإخوان"!».

أشرتُ إلى لباسيَ الأبيض وقلت له بسذاجة الحيران: «هذا يُشير

إلـى أنَّنـي لَـمْ أُحاكَـمْ بَعْـدُ، وأنَّنـي مـا زلـت مُتَّهمًـا...»، ردّ بغضـب:
«أنـت هنـا طـوع مزاجـي يـا شـاطر!»
ثم أمر السـجّانَ بأنْ يسـوقَني إلى ذاك القبر مُجدَّدًا، وبالقوَّة!

بَيْضاء في الأصْل

الخَـلْوَة والبَحْـثُ عن المَعْـنى

بِــتُّ ليلتـي أهتـف حتـى بُـحَّ الصـوت، وخـار الجسـد، ونمـت لأسـتيقظ فـي سـاعة لـم أعرفهـا، فهـذا القبـر مُظْلِـمٌ صباحًـا ومسـاءً لا تـدري فيـه ميقاتًـا، وَكُنْـتُ أتَتَبَّـعُ مواقيـتَ الصـلاة بالقلـب، لا أدري متـى الفجـر ومتـى العشـاء.

ظَلَلْـتُ علـى هـذه الحـال يومين أتجـرَّع فيهمـا مـرارةَ الألـم، ولا أرى إلّا شـعاع نـور ارتسـم علـى الحائـط الأسـود كقمـر فـي ظـلام ليـل حالـك؛ تحتـه أكتـب أو أقـرأ كتابًـا عهـدت صحبتـه كلمـا اشـتد علـيَّ الخَطْـب، حيـث كنـت أمـرر الصفحـات علـى الشـعاع، فتتَّضـح السـطور كأنَّ القمـر ينيـر طريقًـا مفعمًـا بالسـواد.

صـرت أتحسّـس مَواطـن الحكمـة فـي مـا أنـا فيـه، وانكشـف لـيَ المعنى، ولا ينكشـف إلّا مـع مـرارة المعانـاة، ولا يفهمـه الإنسـان حتـى يـذوق العلقـم. وآمنـت عِيانًـا بِيانًـا أنَّ اللَّـه يُنْعِـمُ بالبلـوى، وإنْ عَظُمَـتْ، ويبتلـي بعـض القـوم بالنِّعَـم. وإنْ كان مـن شـيء يسـتحقُّ تحمُّـل كلّ هـذا فهـو إيماننـا بغايـة نعيـش مـن أجلهـا ــ غايـة فـوق الطعـام والشـراب اللَّذَيْـنِ يعتنـي بهمـا أبنـاء الاسـتبداد البَـرَرَة، وحبـذا لـو وُفِّـرا مـع قليـل مـن مداعبـة مواطـن النشـوَة التـي زُرعـت فـي العقـل الجمعـيِّ للشـعوب:

نعـرات الأمجـاد الزائفـة، مسـتقبل البـلاد وأحـلام يقظـة الأجيـال، ومـا شـئتَ غيـر ذلـك مـن تغافـل البؤسـاء.

فـي الخلـوَة، أحسسـت بعظمـة الطريـق الـذي أسـلك، رغـم صعوباتـه، وضيـق جَنَباتِـه كضيـق زنزانتـي هـذه أحسسـت بـأنَّ هنـاك مَـن هـو معـي يحادثنـي فـي قلبـي: إلهًـا لـن يتـرك مسـكينًا مثلـي وحـده...

غلبنـي النـوم مـرة أخـرى، وأحسسـت بأنّـي أطلـت فيـه كـي أسـتريح وأسـتجمع قـواي، وأبـدأ مقاومتـي مـن جديـد للخـروج مـن هـذا المـكان.
قمـت فواصلـت الصيـاح والهتـاف فأتـى إلَـيَّ مسـرعًا شَـخْصٌ ضخـم الجثّـة، وقـال لـي: «مـاذا تريـد؟ طعامًـا؟»
فـردَّدتُ: «لا! أريـد أن أخـرج مـن هـذا المـكان، وأَبْلِـغ الضابـط المسـؤول أنَّنـي فـي إضـراب مفتـوح عـن الطعـام».
أحسـب أنَّ هـذا الشـخص لـم يعلـم مـا هـو الإضـراب عـن الطعـام، فذهـب ثـم أتـى مسـرعًا غاضبًـا مستشـيطًا، فعرفـت أنَّ الضابـط قـد أفهمـه القصـة، وأنَّ الإضـرابَ هـو وسـيلة احتجـاج.
ظللـتُ ثابتًـا علـى موقفـي حتـى فُتِـحَ البـاب، فخرجـت مُصِـرًّا علـى عـدم العـودة مـرَّة أخـرى إلـى ذاك القبـر!

أُخِـذْتُ إلـى مـكانٍ آخَـرَ أشـدّ قـذارة، وهنـا بـدأتْ معركـة أخـرى كنـت فيهـا خصمًـا لاثنيـن مـن المخبريـن، والمُخْبِـرُ معـروف فـي الثقافـة السياسـيّة المصريّـة بِضَعْـفِ عقلـه وضخامـة جسـده وعبوديَّتـه لأوامـر الضابـط.
آلَ الأمـر إلـى دَرَكَـة أخـرى انحـدرت فيهـا! فحُبسـتُ فـي مـكان آخـر أشـد قتامـةً وسـوءًا!

فـإنْ كُنْـتَ تشـكو مـن الزنزانـة الانفراديَّـة، فتعـال لنُشـهدك مـا يُفْعَـل بغيـرك، حتـى تـذوق العـذاب قبـل أنْ نُوقعـه بـك!

بقيـت مذهـولًا أترقّـب، حتـى عـدتُ لأسـتجمعَ قـواي، وللصيـاح مـرَّة أخـرى، فأتـوا لإخراجـي مـن ذلـك المـكان إلـى آخَـرَ، لا نُـزولًا عنـد رغبتي ولكـن كـي لا تَأْلَـفَ مُسْـتَقَرًّا فَيَهـونُ عَلَيْـكَ أمْرُهـم.

بَيْضاء في الأصْل

حين يَصيرُ المُذْنِبُ والبريءُ مُجْرِمَين!

لا أعلم هل السجن بهذا الامتداد أم أنَّه بُعْدٌ تُحْدِثُهُ المعاناة!

سرتُ في دهاليز أُخَرَ تُشابه سواها في التصميم، والرائحة الكريهة، ووجوه السَّجّانين؛ جدران سوداء قاتمة قد اشتكت من كثرة ما لاقت من ألوان الظلم والأنين والصرخات التي أطلقها المعذَّبون؛ كأنَّها قد اتّشحت بالسواد حدادًا على تلك الأرواح التي أُزْهِقَتْ بين جنباتها جرّاء التعذيب الذي يلقاه دعاة الحقِّ وطلّاب الخير.

سِرْتُ إلى مجهول ينتظرني، ولكني وجدت في هذا المكان الجديد عالمًا آخرَ وأناسًا آخرين، عقولًا متباينة، تجمَّعوا على غير ميعاد، أظنّ عِدَّتَهم عشرين رجلًا، تحلَّق حولي منهم ثمانية، غريبو الأطوار أو هكذا بدا لي، تلقَّفوا أمتعتي بصمت ليلقوها في زاوية كانت تنتظرني...
كان لكلّ منهم سمت خاص، إلّا أنَّ أصحابَ الشّاماتِ والنُّدوبِ الظاهرة من اعتياد المشاجرات بدوا الأبرز للوهلة الأولى...
هذا مُهَنْدَمٌ حتى في ثياب المساجين، عليه أمارات التحضّر، ربَّما كان مهندسًا أو طبيبًا، وذاك صاحب لحية، عبوس في السجن، عبوس

خارجه؛ وآخر كمثل هيئته ولكن تقاسيم وجهه مستكينة، انطبع عليها ممّا وقر في صدره. وشابٌّ في مثل سِنّي، إلّا أنّه شاحب اللون مع سواد تحت عينيه، ورجفة لا تُفارِقُ يديه. نعم، قلَّما يلتقي هذا الجمع خارج مكان كهذا!
من كان يتصوَّر منهم أنَّه يعيش مع هؤلاء الأصناف من الناس على صعيد واحد؟ يخدم بعضهم بعضًا، يتسامرون ويتناجون، يستحيي السياسيّ أنْ ينزوي في ركن عن صاحب الجناية، وإلّا خالف فِعْلُه قَوْلَه؛ أليس هو المُنادي بإصلاح المجتمع؟
لا يستحقر مُتَعَلِّمُهُم جاهِلَهُم، ولا يستعلي بَريئُهُم على مُذْنِبِهِم؛ فإنْ كان منهم بريئون من وجه ما، فَهُم مُتَّهَمونَ من وجوه أُخَر!

لكنَّ أكثر مَنْ جذبني إلَيْه، شاب في مثل حالي، إلّا أنَّ تَصَرُّفاتِه غريبةٌ وغَيْرُ مُتَوَقَّعَة، بدا عليه الاضطراب كأنَّ وراءه سرًّا يتعاظمه. وكنت أتعجَّب منه أنَّه لا يقرب معنا الصلاة أبدًا وإنْ ألْحَحْتُ عليه، ولم أعلم منه أنَّه لادينيٌّ أو حتى مُعتنِقٌ لملَّة غير الإسلام؛ وصار عجبي منه يزداد حتى باح لي بِسِرِّه، وعرَّف بشخصه، ــ وهو (محمد ...)، صاحب قضيّة طائفيّة شهيرة ادَّعى فيها أنَّه تحوَّل عن الإسلام للمسيحية، ثم رجع عن هذا القرار بعد خروجه من السجن.

قضيت جُلَّ وقتي أُمَنّي نفسي بأنّي ذاهب للامتحانات لا محالة، حسبما نبهني ضابط المباحث قُبَيل نقلي إلى هنا. ومن أجل ذلك حاولت أنْ أُلْمِلِمَ شتات تركيزي وأشحذ ذهني لمذاكرة المادة المنتظرة.
ولكن لا أتذكر أنّي قرأت كلمة واحدة أو وعيت شيئًا حتى غلبني النوم.

استيقظت لصلاة الفجر دون أنْ يوقظني أحد كما اعتدت، وبدأت بالتأهُّب للذهاب وانتظرت المنادي ليأخذَني إلى حيث لا أعلم مجددًا.

وبقساوة الانتظار مَرَّ الوقت الذي كنت أحسبهم ينادونني فيه، وهو الساعة الثامنة، وقت الترحيلات في السجون المصرية، حتّى أتَتِ العاشرة وأتى معها صوت الشاويش يصيح باسمي: «سيف الإسلام السيد صبحي... زيارة»!

بَيْضاء في الأصْل

ومِـنَ الحَـنـينِ ما قَـتَـل

وقعـت تلـك الكلمـة منّـي موقِعَهـا، حتـى تَسَـمَّرْتُ غيـر مصـدق أنَّـه أصـاب الخبـر.
ربمـا أراد غيـري، أو لعلهـا اضطرابـات مـن قلـة النـوم. بلـى، هـذه الكلمـة لـي! كل ذلـك مـن وقـع كلمـة، ليسـت إلّا خمسـة حـروف إلّا أنَّهـا فـي عـداد النفـس سـنين طـوال عشـتها فـي كَنَـفِ أبٍ وأُمٍّ، لـم أتصـور أنْ يأتـي مَـنْ يسـلبني ذلـك الأمـان بجوارهمـا.
أمـا الحنيـنُ والشـوقُ فكنـت أعْلَمُهُمـا لَهُمـا مـن نفسـي، ولكـن فـي المعتقـل، تحـت سـطوة مُسْـتَبِدٍّ لا يرقـب فينـا إلهًـا ولا ذمـة فالخَطْـبُ عسـير، عصـيٌّ علـى التعبيـر، لا يدركـه إلّا مـن ذاق مرارتـه!
ورحـت أغالـب نفسـي وأوهمهـا أنَّ الزائـر كائنًـا مـن كان يبعـد أنْ يكـون أحدهمـا! لعلـه منـدوب الامتحانـات يـا نَفْـسُ يـا مسـكينة!

بالفعـل دارت فـي رأسـي كل الاحتمـالات: ربمـا يكـون صديقًـا، ربمـا أحـد المسـؤولين بالكليـة، ربمـا لجنـة الامتحـان سـتنعقد بالسـجن مبكـرًا، ربَّمـا ربَّمـا!
ولِـمَ أتعجّـل شـيئًا قبـل أوانـه؟ ولِـمَ القلـق؟ أمِـنَ المفتـرض أنَّـه بعـد سـاعتين سـيعقد الامتحـان؟ أيـن اللجنـة؟ وأيـن الأوراق؟ وأيـن الطـلاب

الذيـن تجمّعـوا ليتناقشـوا فـي أمـور تخـصّ العلـم والامتحـان؟ وأيـن مكالمـة أمـي وأبـي لِيَطْمَئِنّـا علـى اسـتيقاظي قبـل الامتحـان بسـاعات كافيـة لأتنـاول الفطـور وأُراجـع المـادة كمـا عهـدت طيلـة سـنوات تعليمـي؟!

خرجـت لملاقـاة الزائـر وفـي يـدي كتبـي وقلمـي وكأنّـي ذاهـب للامتحان بالفعـل كمـا طاوعتنـي نفسـي؛ ولـم أكـن متهيئًـا قـط لزيـارة ما.
خرجـت وكأنّـي ذاهـب لملاقـاة ورقـة وأسـئلة يتعرَّق لهـا جبينـي وتعتصر لهـا ذاكرتـي، تحوطنـي هـراوات العسـاكر ويتقدمنـي مُخْبـر يتحسَّـس الطريـق، وسـرنا مـن الدهاليـز الملعونـة مـرة أخـرى حتـى خرجنـا منهـا، وانكشـفت لنـا الشـمس مـن فـوق أسـقف السـجن المظلمـة التـي تمنـع الشـمس والهـواء فضـلًا عـن الحـب والحيـاة ورؤيـة السـحاب ومناجـاة القمـر!
انكشـفت لنـا الشـمس، فانكشـف معهـا أنـاس كثيـرون، قـد أقبلـوا طمعًـا فـي رؤيـة أحبابهـم وذويهـم، تلفـح حـرارة الشـمس وجوههـم، فتصيـر مزيجًـا مـن الوجـوه الحزينـة المتعرقـة المتشـوقة لرؤيـة الأحبـاب: هـذه أُمٌّ قـد انتظـرت لسـاعات حتـى تقـرَّ عينهـا برؤيـة فِلْـذَة كبدهـا. وذاك أب قـد انحنـى ظهـره مـن كثـرة مـا حمـل لابنـه مـن أمتعـة وزاد، وتلـك زوجـة صابـرة محتسِّـبة قـد جمعـت فـي وجههـا شـعورَيْن متناقضيـن: شـعور الشـوق وشـعور الإرهـاق مـن طيلـة الفـراق، وأولاء أطفـال شَـيَّبَهمُ الانتظار لسـاعات أمـام أبـواب السـجون، وذا كهـل بلـغ مـن الكِبَـر عتيًّـا قـد أتـى لرؤيـة ابنـه الرجـل الـذي فارقـه مُكرهًـا وهـو فـي أشـد الحاجـة إليـه.

رأيـت مشـاهد متناثـرة فـي مـكان واحـد تحوّطهـا سلاسـل الظلـم، وتحرسـها عيـون القهـر المطيعـة.

قاد المخبر هذا «الموكب»، أنا ويحوطني أربعة من العساكر صغار السن وشاويش، وسلكوا بي طريقًا لا يسلكه سوى «معتقل ذي شأن»، فقصدت أنْ أسيرَ مُتَبَخْتِرًا، وكأن هؤلاء هُنا حولي لحراستي دون غيري، وعدّلت من ياقة قميص السجن الأبيض، وسط الأهالي الذين رحبوا بي كأنَّهم يعرفونني منذ زمن بعيد، وارتفعتْ دعواتهم مع اختراقي لتلك الصفوف، وبالطبع عرف الكل أنّي طالب مما أحمله من الكتب.

في ملتقى الزيارات، تختلط الأصوات وكأنَّها تحوّم في عالم الشوق؛ هنا الحنين، أسمى معاني العشق، وأقسى مشاعر الفراق، هنا تتولد هذه المعاني بين هذه الأسلاك.
هنا تذوب الكلمات في فرحة لا تُعَكِّرها إلّا دموع الفراق الذي لن يلبث أنْ يحين بعد قليل من الوقت.
هنا وردة تُقَدَّم من زوج لا يملك سواها وراء القضبان، قَطَفَها من حديقة السجن التي كنا نمر عليها أحيانًا، واحتفظ بها في مصحفه أو قميصه ليقدمها هدية لزوجه الصبور.
هُنا أحضان تعصر أيام الفراق وتجتزئ منها دقائق. هُنا فتى جلس ليحكي لأهله كيف صار رجلًا بفعل مصائب الحياة. وكيف يتعلّم القرآن ويؤنسه قيام الليل، وكم من الكتب قرأ ونوادر الزنزانة وأسمار الرفاق، مُصَبِّرًا إيّاهم بأنَّ الفرج يعقب الشدة، وأنَّ الخلاص قريب.

أخذت ألتفت يَمْنَةً ويسرة، فلا أجد أحدًا أعرفه... قَلَّبْتُ في الوجوه حتى تلاقت عيوننا!
هو، هو! تلك القامَةُ التي لَمْ تَنْحَنِ لأحد، وتلك اليَدُ التي لطالما

أنهضتني وعلّمتني السير في ركاب الحق مهما عصفت بي صروف الدهر.
تَقَدَّمْتُ خطوةً لأقترب وسط هذا الزحام، وكأنَّ المئات قد سكتوا واختفوا من حولي، وما أرى سوى هذا الجبين الناصع الذي اقتديت به في عدم انحنائه لطاغية أو ظالم أو مستبدّ، ولم ينحنِ إلا للّه.

الْتَقَت الأعين... وما إنِ التقت حتّى وثبت الأجساد وانتفضت الصدور، واحتكَّت القلوب والضلوع تكاد تتشابك من شدّة الشوق.
صمتت الكلمات إلّا من نحيب قد غلبني وغلب هذا الرجل الخمسيني الذي قطع الطريق في تسع ساعات حتى وصل إلى هذا السجن.
طال صمتنا ولا نكاد نبين، رغم أنّي وإياه لا تنقصنا طلاقة القول وفصاحة اللسان!

بَـيْـني وَبَـيْـنَ أبـي

حَضَـرَ أبـي، فكانـت عظمـة اللقـاء الـذي سـبقته شـهور مـن الفـراق والنـوى.

ومـن المفارقـات أنَّـه فُـكَّ أسـره هـو الآخـر قبـل اعتقالـي بشـهور معـدودة. وكانـت شـهورًا عرفـت فيهـا مـن معانـي الأبـوَّة مـا لـم أكـن لأعرفـه إلّا بهـذه الطريقـة: غيـاب الأب غيابًـا قهريًّـا لا يُعلـم مكانـه ولا مصيـره! ربمـا كان للقـدر عملـه فـي تهيئتـي وتهيئتـه لمصـاب مـن هـذا القبيـل...

وبالرغـم مـن أنَّ أيًّـا منـا لـم ينخـرط فـي سـلك تنظيـم معيَّـن، إلّا أنَّ الاعتقـال لـم يعـد مقتصـرًا علـى أفـراد التنظيمـات، بـل يكفـي أنْ يُشـاع عـن الواحـد مـن النـاس أنَّـه يسـتعمل ذهنـه أكثـر ممّـا ينبغـي لِيُـزَجَّ بـه فـي السـجن.

مـا زلـت أحتفـظ بالقصاصـات التـي كان يُعطيهـا لـي أبـي حيـن عرفنـا مـكان اعتقالـه وسـمحوا لنـا بزيارتـه... كانـت أشـبه بخيـطٍ جديـد يتَّصِـلُ بينـي وبيـن أبـي، خيـطٍ كان لـه مـا بعـده... لَـمْ يَعُـدْ يخشـى علـى صغيـره مـن الخطـف وقـد عـاش معنـى صيـرورة المقاديـر التـي لا يملـك لهـا أحَـدٌ دفعًـا.

تبادلنا أطراف الحديث، وأشعل حديثُنا شوقي لأمي وأخواتي، لكن بدا لي أنَّه يحمل خبرًا «غير سارّ» يَتَرَدَّدُ في إعلامي به. ثم قال: «اسْتَعْوِضِ اللَّهَ في عامِك هذا، وأفْرِغْ هَمَّكَ مِنْ أمْرِ الامتحانات».

وبعنفوان شابٍّ له من العمر تسعة عشر عامًا صحت مُتَذَمِّرًا: «كيف؟ كنت أظن أنَّ هذا أبسط حقوقي من غير مراء ولا عنت!».

تَفَهَّم حالي، وسرعان ما هَدَّأَ من روعي ثباتُه في إلقاء الكلام: «وماذا يضيرك تأخر عام عن أقرانك؟ أتضع اعتبارًا لحديث الناس؟ قد أُقحمت في مكان ليس لمثلك أنْ يطأه، وإنَّ يومًا في معاناتك هذه كألف يوم مما يعدّون مِنْ أيام الجامعة. أما تدري كيف تسير الأمور؟ تَبَرَّأَتِ الجامعةُ منك، وكل ما تحاوله من تلك الإجراءات سيستنفدك هدرًا. وقد هدَّدوا إنْ ظل اسمك يتردَّد عندهم أنْ يلحقوا الضرر بأقرانك الذين أظهروا تضامنهم معك، فأغلِق يا ولدي ذاك الباب إلى حين... وليس ذلك بمستغرب منهم، فَكُلٌّ آخذ بعنق من تحته!».

أزال الحديثُ مع أبي عني كل غمّ. أبي. ليس هذا الرجل عاديًّا: حَدِّثْني عن أب يزور ابنه بداخل المعتقل فلا تنطق شفتاه إلّا بكلمات التثبيت والتأييد والتشجيع على السير قدمًا في هذا الدرب.
أُقسم أنَّ تلك الكلمات لا أنساها وإنْ طال بي العمر أو كثرت بي الأحداث أو تغيَّرت بي الأرض: أب مكلوم يُلَقِّن ابنه الوحيد دروسًا في الثبات وحبّ الوطن... الوطن الذي يقبع في سجونه!

مـازج ضحكُنـا دموعَنـا إبّـان الـوَداع، رغـم أنَّ مـكان الزيـارة كان مـع محكومـي الإعـدام فـي مـكان معـزول، لكـن رؤيـة أبـي قـد أنسـتني طبيعـة المـكان مـن حولـي وحوّلتـه إلـى جنـة خضـراء لا أرى فيهـا سـوى هـذا الوجـه الباسـم!

بَيْضاء في الأصْل

إذا خُـيِّرْتَ.. فاخْتَر ألّا تختار!

رجعـت مُشَـرَّدَ النَّفْـس بعـد ذهـاب أبـي، بيـن تأثيـر حديثـه الطيِّـب والوسـواس الآخـر الـذي يُوهمنـي أنَّ المسـتقبل يتمثـل أمامـي فـي ورقـة لـن ألمسـها.

حاولـوا اسـتغلال حالتـي النفسـيَّة التـي تركنـي بهـا والـدي ليُخيِّرونـي بيـن أمريـن كلاهمـا مـرّ: إمـا أنْ أمكـث فـي هـذا السـجن حتـى يُخطـروا الكليـة بالتماسـي، وننتظـر إلـى أجـل غيـر مسـمى، متعلقًـا بأمـل أنْ تأتي اللجنـةُ التـي لا تعـرف مـكان احتجـازي رسـميًّا! أو بالأحـرى تَبَـرَّأَتْ منـي! أو أنْ أُوَقِّـع بالقـوّة طلـب تنازلـي عـن أداء الامتحانـات وعـدم تكـرار هـذا الطلـب، ومـن ثـمّ عودتـي إلـى سـجني العمومـيِّ الأوَّل القريـبِ مـن بلدتـي فـي شـمال البـلاد، حتـى أكـون قريبًـا مـن أسـرتي ومقـرِّ محاكمتـي التـي سـيتمُّ تحديدهـا لاحقًـا فـي تموز/يوليـو، وأسْـتَعْوِضُ اللَّـهَ فـي السـنة الدراسـية كمـا قـال أبـي، وأعـود بخُـفَّيْ حُنيـن، معتـذرًا عـن عـدم أداء الامتحانـات لا محرومًـا منهـا بالتعسُّـف والقهـر!

يـا لهـذه المأسـاة! مأسـاةِ المنـع مـن الامتحانـات التـي تلحـق بـآلاف الطـلاب فـي كلّ موسـم امتحانـات فـي كلّ السـجون المصريـة وكلهـا

مُرتبــة ومقصــودة بغــرض إزهــاق روح طلــب العلــم وتمزيــق إرادة التعلّـم.

أدخلونــي مكتبــة الســجن التــي تقتصــر موجوداتهــا علــى عــدد مــن الكتــب الباليــة التــي غطّاهــا التــراب.
على بابها شخص بلباس مدنيٍّ عرفت منه أنَّه يعمل بصفة «اختصاصي اجتماعي».

دخلـت مُقَيَّـدًا، (مُكَلْبَشًـا)، وأصـررت علـى أنْ أدخلهـا وفـي يـدي قيـدي وكتبـي لأن هـذا القيـد سـببه العلـم والسـعي وراء الحريـة: حريّـة قـد جلبـت علـيّ اعتقـالًا وسـجنًا وتعذيبًـا وألمًـا ورسـوبًا فـي كلّيّتـي التـي طالمـا طمحـت إلـى الالتحـاق بهـا.

جَلَسْـتُ مـع هـذا المدنـي، فـراح يسـألني عـن أيِّ العلـوم أدرس؟ فقلـت لـه: العلـوم السياسـية! فقـال: ومـاذا فعلـت لـك السياسـة إذًا؟ وبلهجـة ريفيـة: «رَمَتَـكْ للسـجن»، فَـرَدَدْتُ عليـه: «بـل رمتنـي إلـى المعرفـة والعلـم بحقيقـة الأشـياء والمجتمـع ومواقـف لـم أكـن لأتعلَّمهـا لـو جُبـت بـلاد العالـم. وعَرَّفَتنـي أيضًـا أنَّ مصـر لا عِلْـمَ بهـا ولا تعليـم، ومـا الفـوزُ إلّا لأصحـاب الجهالـة! تعـرِف، يـا أسـتاذ، لقـد أكسـبتني هـذه التجربـة أضعـاف الـ ١٩ عامًـا التـي عشتُـها!»
وكان المُخْبِـرُ ورائـي فـي هـذه اللحظـة يُصغـي، وكنـت علـى يقيـن أنَّـه لـم يفهـم شـيئًا ممـا قلـت.

هـذه حالـة الهرم السـلطويّ العسـكريّ والشـرطيّ فـي جمهوريـات الموز: أجهـزةٌ أمنيَّـةٌ يَتَحَكَّـمُ بهـا سـلطويّون أغبيـاء، ومـن تحتهـم أجسـادٌ بـلا

عُقـولٍ تُؤْمَـرُ فَتُطيـع، رأسٌ يُحَـرِّكُ ومَرؤوسـون يَتَحَرَّكـون كالدُّمـى، وقَتَلَـةٌ بـلا رحمـة ولا شـفقة.

جِيء بورقة مكتوب فيها:

«السيد الأستاذ الدكتور...

عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة...

أتَقَـدَّم، أنـا المتَّهـم سـيف الإسـلام السـيد صبحـي، باعتـذار عـن عـدم أداء امتحانـات الفصـل الدراسـي الثانـي للعـام الجامعـي نظـرًا إلـى بعـض الظـروف، وأرجـو منكـم قبـول هـذا الاعتـذار».

وطُلِـبَ منّـي التوقيـعُ علـى هـذا الـكلام الفـارغ. كانـت الصيغـةُ جاهـزَةً والـكلامُ مُعَـدًّا، والسـيناريو محبـوكًا كحبكـة حبـل المشـنقة حـول الرقاب. أحسسـت بأبعـاد المؤامـرة!

أمسـكت بهـذه الورقـة ومَزَّقْتُهـا أربعًـا وأرسـلت الضحـك والسـخرية مـن سـوء الخـط والأخطـاء الإملائيـة والصيغـة الحقيـرة والورقـة الباليـة.

ثُمَّ قُلْتُ لهم، ولم يعد لديّ ما أُداهن من أجله:

ولمـاذا أُرسـل لعميـد الكليـة؟! ولا شـأن لـه ولا سـلطة... السـلطة المطلقة للأمـن ومصلحـة السـجون؛ ولـو أقسـم عميـد الكليـة علـى امتحانـي لمـا غيّـر مـن الأمـر شـيئًا!

لِـمَ لا نجعـل الورقـة ورقتيـن إذًا يـا رفـاق؟ طلـب تأجيـل يُوَجَّـه إلـى عميـد الكليـة كمـا تحبّـون! وطَلَـبٌ «يُرْفَـع» إلـى السـيّد الأسـتاذ الدكتـور... مأمـور السـجن برغبتـي فـي الترحيـل إلـى السـجن العمومـيّ بجانـب محاكمتـي وقريبًـا مـن أهلـي...

وليكن نصّ طلب التأجيل المُرْسل إلى عميد الكلية... وسأكتبها عنكم:

«السيد الأستاذ الدكتور...
عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة...
أتقدم إليكم، أنا الطالب فلان، المُقَيّد بالفرقة الأولى شعبة اللغة الإنكليزية ورقم جلوسي ٤٤٤، بطلب تأجيل الامتحانات نظرًا إلى ظروف المعتقل غير المؤهلة للمُذاكرة ولا للعيش الآدمي ولعدم قدوم لجنة لامتحاني»!

استغرب الاختصاصي الاجتماعي من الصيغة: كتبت «الطالب» بدلًا من «المُتَّهَم»، «المُعْتَقَل» وليس «السِّجْن»، تأجيلًا وليس اعتذارًا! فأجبته أنَّ هذا كلُّ ما لديّ، ولن أوَقِّع ولو بالقوة سوى على هذا الكلام! أنا لا أعتذر عن عدم أداء الامتحانات، الكلية هي من عليها الاعتذار لي، وهذه الامتحانات مؤجَّلة إلى موعد خروجي.

ومع تلك الهيمنة المؤقَّتة من طرفي، فقد خَفَتَ كل ذلك الاندفاع فجأة؛ وهكذا الشأن في المعتقل أو في أي مكان تحت سطوة القهر والاستبداد لا تستقيم لك نفسك على حال واحدةٍ، بل تتقلب بين اليأس والأمل، الفتور والمقاومة. فلا عجب أنْ لاح في أفق مُخيلتي مستقبل أسود بدأت ترتسم ملامحه!
طالبٌ متخلِّف عن دفعته التي كانت باكورة الكلِّيَّة وجيلها الأول... تُرى كم دفعة سأتخلف؟
كم شهرًا سأمكث في السجن بلا امتحانات ولا شهادات؟ دارت في ذهني تلك الأسئلة كآلاف الطلاب الذين حُرموا من الامتحانات ولم يُسلِّط أحد الضوءَ عليهم.

دار في ذهني طول المكوث الذي لن تأبه به مصلحة السجون، ولا وزارة التعليم العالي، ولا أيّ من أدعياء المنظَّمات الحقوقيَّة في الداخل الذين يُدار معظمهم من خلال وزارة الداخلية، (من مثل «المجلس القوميّ لحقوق الإنسان»)، الذي تحدّث أكثر من مرّة، أثناء فترة اعتقالي، عن سعيه لحصر عدد الطلاب المعتقلين في السجون على ذمّة قضايا سياسية.

وكم من مرة زُيِّن لنا الأمل في الخروج بعدما تمَّ حَصْرُ أسمائنا بطريقة تثير الحسرة المُضحكة.
كان يدور على عنابرنا شخص لَمْ يَحْظَ من التعليم بغير الشهادة الإعدادية أو ربَّما قد أنهاها وهو لا يدري القراءة الصحيحة أو «فكّ» الخطِّ العربي إلا بصعوبة بالغة وينعق: «مين الطلاب اللي هنا؟»
ودعني أحدثك عن كَمٍّ الكوميديا السوداء عندما كان يُسَجِّلُ الأسماء ويحصرها، هذا في كلية الطب البشري وذاك في كلية الهندسة ــ وما أكثر طلاب الهندسة في السجون المصرية ــ وهذا في كلّيّة الألسن، وآخرُ في كلّيّة الشريعة والقانون وذاك يدرس تخصّصًا نادرًا في كلّيّة العلوم. (والحقيقة أن الطلّاب الإسلاميين مشهود لهم بالجدارة والتفوُّق في الكلّيّات العملية، وينـدر وجودهم في الكلّيّات التي تهتمُّ بدراسة العلوم الاجتماعيّة).

بَيْضاء في الأصْل

طـول المـقـام يَسْتَـجْـلِبُ الأُلْـفَـة

عُـدت إلـى غرفـة الرفـاق، واتَّخـذتُ منـذ ذلـك الحيـن قـرارًا أنَّنـي مهمـا طـالَ بـي زمـان الاعتقـال أو قَصُـرَ سَـأَهَبُهُ للعلـم والتعلّـم والاسـتفادة والتجربـة مـن هـذا المجتمـع المنعـزل الـذي لا يعـرف عنـه الكثيـرون أيّ شـيء، ولربَّمـا أكـون ناقـلًا لبعـض مـا يحـدث داخـل مجتمع «المسـاجين الجنائييـن»، ذلـك المجتمـع الشـاذّ حقًّـا الـذي ينتشـر فيـه وجـود ضحايـا علـى أشـكال بشـر مُزِّقـت أشـكالهم وفِطْرتهـم طـوال فتـرات الحبـس.

لـم يكـن مـن العشـرين مسـجونًا أحـدٌ مُتَعَلِّـمٌ إلّا سـبعة، ومـع ذلـك كان لـكلّ مـن البقيّـة تجربتـه الشـخصيّة التـي اسـتفاد منهـا مـا لـم يسـتفده المتعلِّـم بيـن جنبـات الجامعـة؛ مـن هـؤلاء رجـل علـى أعتـاب الشـيب كنـت أحـب مجالسـته، وقـد مكـث فـي السـجن بمثـل عمـري: تسـعة عشـر عامًـا لـم يـر فيهـا الشـمس...

وبالمقابـل، تجـد مـن زاده السـجن سـوءًا وحَنَقًـا علـى المجتمـع بأسـره، حتـى إنَّـه يتوعَّـد النـاس جميعًـا ويُحمِّلهـم جريـرة حبسـه! فـإن كان لصًّـا فهـو يحقـد علـى كلّ الأغنيـاء. وهلـمَّ جـرّا.
علّمنـي هـؤلاء أنَّهـم ضحيّـة تقصيـر، وقـد جنـى المجتمـع عليهـم، وقـد

درجـوا علـى العيـش فـي السـجن حتـى صـار لهـم، (ولـم تكـن مرّتهـم الأولـى سـوى زلَّـة)، عـادةً ثـم سـلوكًا دأبـوا عليـه حتـى صـاروا مجرميـن.

حاولـت أنْ أُحْـدِثَ أثـرًا مـا بينهـم، فمـن كان أميًّـا علَّمتـه مبـادئ القـراءة والكتابـة، ومـن لـم يكـن يتوجـه إلـى محـراب أبـدًا، علَّمتـه الصـلاة وصلّينـا معًـا.

جلسـت علـى هـذه الحـال عشـرة أيـام لـم يقطع سـيرها المتشـابه سـوى زيـارة أمـي الحبيبـة التـي قطعـت الطريـق مـن أقصـى شـمال البـلاد إلـى جنوبهـا متشـوِّقة إلـى لقـاء ابنها.
وجـدتُ فـي سـلوى الحديـث معهـا مـا أزاح مـرارة السـجن عنـي. حُضْنُهـا أعـاد إلـيّ روحـي التـي جفَّـت والحديـث إليهـا أذهـب عنـي كربي.
وبخـلاف الأب لا تتصـوّر الأم بسـهولة أنـك صـرت إلـى مـآل آخـر وتتحمّـل كل تلـك الأمـور؛ وهـذه هـي عظمـة الأم، لا تـزال تُحْيـي فيـك معانـي الطفولـة حتـى تذهـب عنـك!

وَدَّعْـتُ أهلـي مُجَـدَّدًا وعُـدت إلـى الزنزانـة أو قُـل إلـى المنفـى، وبعـد أيّـام جـاء طالـب آخـر، اتُّهِـم فـي قضيَّـة مماثلـة وقـد جـيء بـه مـن مجمـع سـجون طُـرة بالقاهـرة، ولكنـه أصـاب مادّتيـن فقـط مـن سـت مـوادّ كانـت مُقَـرَّرَةً فـي تخصصـه. لَـمْ نَبْـقَ معًـا سـوى خمسـة أيّـام ملأناهـا بالنقاشـات العلميّـة والتشـارك فـي القـراءة وتعليـم مـن معنـا، وكذلـك الطالـب يكـون مشـكاة فـي أيّ مـكان يـزوره.

أحسسـت بأنّـي قـد أنهيـت مـا كتبـه اللّـه مـن البقـاء فـي هـذا المـكان. انتهيـت مـن دروس الحيـاة التـي علّمنـي إياهـا هـؤلاء السـجناء، وأنهيـت

مـع تلـك الأيّـام مـا فتـح اللَّـه مـن العلـم كـي أعلّمهـم إيـاه، وكلهـا كانـت دروسًـا فـي مبـادئ الإسـلام ومـا علينـا مـن حقـوق تجـاه خالقنـا وأنفسـنا والمجتمـع، ورغـم هـذا كان لهـذا التعليـم مـا وراءه.

لا أُخْفـي أنّـي قـد تعلّمـت منهـم كثيـرًا، وكنـت مُؤْمِنًـا تمـام الإيمـان بـأنّ اللَّـه لا يضعنـي فـي مـكان إلّا لسـبب، ولمـا كان سـعيي دائمًـا أنْ أسـير فـي طريـق العلـم والمعرفـة حسـبت منـذ أنْ وطـأت قدمـاي هـذا المـكان بعـد تعذيـب شـديد لـم ألـقَ مثلـه فـي حياتـي قـط أنَّنـي هنـا لمهمـة. عرفـت أنَّ هنـاك مكافـأة مـن اللَّـه لـي فـي هـذا المـكان: كانـت المكافـأةُ الخلـوةَ مـع النفـس، والأثـر النافـع لمـن حولـي.

ومـع انتصـاف أيار/مايـو، انتهـت أيامـي هُنـا، وإذا بالنِّـداء يـؤذن برجوعي إلى سـجني الأول!

بَيْضاء في الأصْل

مشـاهِدُ مِنْ عَرَبَةِ التَّرْحـيلات

تهيَّأْتُ أنا وعشرون آخرون للترحيل.
كلُّهـم متَّشـحون بالثـوب الأزرق الـذي يشـير إلـى أنَّهـم أصحـاب قضايـا وأحـكام، أمّـا أنـا فبالثـوب الأبيـض ــ هـذا الأبيـض الـذي مَلَلْتُـه حتـى ظننـت أنَّ البيـاض لـون العتمـة والظلـم... وبعـض الكتـب تحـت ذراعـي، ويـدايَ يُزَيِّنُهُمـا قـيدٌ حديـديٌّ صُنع فـي بلـد آخـر غير بلـدي، اسـتَوْرده الجـلّادون ليقيِّـدوا بـه كلَّ مـن ناصـر الحريـة يومًـا!

تحـت قَـيْظ الصيـف، حُشِـرنا حشـرًا فـي العربـة الزرقـاء التـي سـتنقلنا جميعًـا، رغـم أنَّهـا لا تتَّسـع إلا لعشـرة مسـاجينَ فقـط. حُشِـرنا فـي العربـة الزرقـاء بأيـدي جـلاوزةٍ لا فهـمَ ولا عَقْـل، كمـا تُحْشَـرُ الطيـور الدواجـن فـي قفـص.
بـدأ النقـاش بيـن جيرانـي فـي العربـة الزرقـاء واحْتَـدَّ فـي مواضيـعَ لا أفهـم عناوينهـا؛ كلُّ كلامهـم يـدور علـى المخـدِّرات ومعاركهـم مـع المباحـث. أحدهـم يَفخـر بأنَّـه قضـى يومًـا أو يومَيْـن فـي الانفـرادي، وآخـر بأنَّـه ضُـرِبَ ضربًـا مبرحًـا ولـم يتفـوَّه بكلمـة «آه»؛ وغيـر ذلـك مـن أحاديـث حياتِهـم جعلَتنـي أحمـد اللَّـه ألـفَ مـرّة أنَّنـي اعْتُقِلْـتُ مـع السياسـيين رغـم حـدَّة التعذيـب!

مَـرَرْتُ فـي هـذه الرحلـة بـأربعة سـجون كان أوَّلهـا أشـهر سـجون مصـر: طـرَّة الـذي عَرَفَـتْ قضبانَـه كلّ نخـب مصـر... ألقيـتُ عليـه نظـرة مـن شـبّاك العربـة الزرقـاء، وانْصَرَفْـتُ إلـى كتابـي الـذي أمسَـكتهُ بـكلّ صعوبـة مـن خنـق القيـد ومـن زحـام المـكان.
سـلكت العربـة طريقهـا فـي شـوارع القاهـرة «المحروسـة» ومـا أصعـب أنْ تراهـا مـن شـبّاك العربـة الزرقـاء!
وإذا بأحدهـم تسـيل عبرتُـه ناظـرًا مـن الشـباك، حتـى تَنَبَّهْـتُ لـه فسـألته: «لِـمَ تَـبْكِ؟»، فـردّ آسـفًا: «أسـكن هُنـا، هُنـا بيتـي ومنطقتـي التـي ولـدت وتربَّيـت فيهـا، هنـا تسـكن أمـي العجـوز التـي لا تقـدر أنْ تزورنـي بسـبب عجزهـا» ومـن كانـت هـذه حالـه يكفيـك أنْ تسـمع قصَّتـه وتصمـت...

شـوارِعُ القاهـرة مـن نافـذة عربـة الترحيـلات عجيبـة؛ ملكنـي الشـوق وقتهـا أن أسـيرَ فـي تلـك الشـوارع وأحتضـنَ زحامهـا وأدقِّـق النظـر فـي مبانيهـا الباليـة التـي علـق فـي ذرّات ترابهـا تاريـخ مـن الـدول: هُنـا حاكـم قـد ظَلَـمَ فقُتـل، وهنـا حاكـم قـد عَـدَلَ فأُكْـرم، وهُنـا مُناضـل قـد هَتَـفَ فسـالت دمـاؤه فأعـادت للأمّـة حقوقهـا، وهُنـا طالـبٌ للعلـم مَـلَأ الدنيـا بالحكمـة، وسـار فـي شـوارعها مغتربًـا يبحـث عـن كتـاب، أو مهمومًـا يتنقَّـل بيـن حاراتهـا ومناطقهـا القديمـة يبحـث عـن دفء المـكان وعبـق الماضـي.

هُنـا القاهـرة! قـد سـطا عليهـا القتلـة ومقيِّـدو الحريـات! قـد آلَ أمرهـا إلـى سـفهائها وجهلائهـا، وقـد باعهـا كلُّ خائـن يبتـاع الثميـن بالبخـس.
نظـرت آسـفًا، تـكاد العبـرات تسـيل منّـي أنـا الآخـر، والنـاس في الشـوارع لا يأبهـون بتلـك العربـة ولا بمـن فيهـا. حزنـتُ ثـمَّ استنشـقتُ عبيـر

الأمل من جدرانها التي قد زيَّنتها الشعارات الرنّانة والهتافات كأنّي أسمعها تصدح بها؛ تخيّلت أنّي أقف أمام أحدها وأكتب بخطٍّ عريض: كلُّ هذا سيزول حتمًا! وستُزيل رياح الحريّة غبار الاستبداد!

سارت العربة واخترقت الشوارع تحوم حولها ثلاث عربات أخرى قد اكتظّت بالجنود والسلاح. مررنا على السجون الثلاثة الأخرى، وكم فيها من مظالم! وَوُزِّعَ رفاق العربة عليها.

وَلَمْ يَبْقَ سواي في الطريق إلى المحطَّة الأخيرة.

كان الوقت قد شارف مغرب الشمس، فرسمت الشمس لوحتها الحزينة على سماء الحريّة. ألهب المشهد مشاعري وذكرت في نفسي قدر اللَّه بغروب كلِّ ظلم واستبداد، وكأنَّ السماء تقول لي: يا هذا الضعيف، إنَّ كلَّ همّ غارب، وإنَّ كلّ فرج آتٍ فاصبر.

كانت صورة حزينة أراقبها حتى حلّ الظلام على العربة، فَظَلَلْتُ واقفًا على الشباك أراقِبُ الطريقَ والعرباتِ والناس، وإذا بهذا الأنيسِ الذي أَلِفته صغيرًا وحرمني منه السجن ــ رفيقِ صغري الذي كنت أُناجيه وأتحدَّث معه فأُحِسُّ ببسمته حين أفرح وبعبوسه حين أحزن، أعشق النظر إليه حين يكتمل ويبلغ تمامه، وأنتظره كي أتابع سيره وحركته ونموه... إذا بـ«القمر» الذي حرمني منه السجن ينكشف لي كأبهى ما يكون.

فَرِحْتُ بهذا اللقاء وَرَجَوْتُ الطريقَ أنْ يطول حتى أستعيد ذكريات سعيدة قد قطعها ظلمُ الأسر.

طـال اللقـاءُ سـاعات وسـاعات حتّـى عرفـت أنَّ العربـةَ الزرقـاءَ ضلّـت طريقهـا وربمـا أمكـثُ فيهـا إلـى منتصـف الليـل...
مـا همّنـي أنَّنـي لـم يدخـل جوفـي رغيـفُ عَيْـشٍ واحـدٍ أو شـربةُ مـاء... كنـت سـعيدًا بلقـاء «القمـر»!

وصلـت إلـى السـجن بشـمالِ البـلاد عنـدَ منتصـف الليـل... وَفُتِحَـتْ لـي البوابـات الضخمـة، والعسـكر يتأهَّـب لاسـتقبالي، وكانَ مـا كان مِمّـا لَسْـتُ أنسـاه... فَظُـنَّ خَيْـرًا ولا تسـألْ عَـنِ الخَبَـر!

وفي الخِـتـام...

انتهت «رحلة الامتحانات» بدروس لَمْ أنْسَها ولن أنساها ما حييت، ومهما طال بي الزمان وطفت من البلاد.
هذه الرحلة كنتُ أتذكَّرها كلَّما جلست في لجنةِ الامتحان بقسم العلوم السياسيّة، وأمسكتُ بالقلم لأكتبَ اسمي وفرقتي فوجدتني قد تأخّرت عامًا عن تخرجي، وتذكّرتها جيدًا حينما ناقشت مشروع تخرُّجي، وخلال حفل تخرُّجي، وحتّى عندما صعدت إلى الطائرة مغادرًا بلادي.

دخلتُ السجن صبيًّا فخرجت منه رجلًا وقد أحسن بي العزيز! وها أنا أُعيد صياغة هذه الكلمات بعدما تركت الوطن وسافرت كي أكمل دراسة الماجستير في العلوم السياسيّة... أروي حكايتي التي حدثت منذ خمس سنين كما لو أنَّها حدثت منذ أشهر فقط!

انتهت تلك الرحلة بحلوِها ومرِّها، ولم يعد أحد يسأل عني إلّا أوفياء ظلّوا على العهد.
خرجت من المعتقَل لأكمل الدراسة الجامعيّة بروح غير تلك التي بدأتها بها، وبعقل يعرف المَقصَد والمُراد، والعدوّ من الصديق،

ولكنَّ السجن ترك أثرًا في العقل غير الذي قد تركه في الجسد! في السجن عرفت مجتمعًا آخر، بل عوالم أخرى، لا يعلم عنها «الإسلاميّون» شيئًا: أناسًا وُلدوا في قلب الإجرام واعتادوا عليه، ولم يجدوا من يُخرجهم من ظُلمةِ الإجرام إلى نور الحياة... في كلِّ دقيقة قضيتُها معهم أحسَسْت بالتقصير! كيف لهؤلاء أنْ يعيشوا بينَنا ولا نبذل جهدًا لإخراجهم من الظلمات إلى النور بزعم أنَّنا دعاة للخير؟ كيف لا ندعو الناس للخروج من جور الإجرام إلى عدل اللَّه ومعرفته؟!

تألَّمت كثيرًا لفراق صحبة السجن، لكنّ ألمي الأكبر أنْ يعود أولئك القلّة الذين تقدَّمتُ معهم خطوات إلى الوراء. فاختلاط الإسلاميين في سجون مصر بمن لاقوا من الجنائيين سَهَّلَ تَحَوُّلَ كثير منهم إلى طريقٍ آخرَ بلا شكّ، حتى إنَّ ذلك أغاظ النظام فقرَّر فصلهم عدة مرات وهي حالات تستحق الدراسة فعلًا؛ (تفاعل الجنائيين مع السياسيّين داخل السجون المصرية).

لقد كانت تجربة السجن مليئة بالحكايات والأحداث المؤثِرة، لكنّي لم أكتب منها سوى رحلة الطالب إلى مقرِّ امتحاناته التي لم يُؤَدِّها.
قضيتُ في السجن ٣٨١ يومًا، ما دوّنت منها سوى تلك الأيام لأنّها مسّت رسالتي التي أعيش من أجلها رسالة «طلب العلم».

السجن ظلمةٌ ووحشةٌ واختِبارٌ ومفترقُ طرقٍ يقف على نواصيها مَنْ ربّما تلقي به المقادير في مهاوٍ لا ينجو منها.
السِّجن مصنع ومدرسة وجامعة لكلّ من أخلص النيّة ووجد العزم...

السِّجن علامة مضيئة لا تفارق المرء طيلةَ حياته؛ تبقى ما بقي وتُذكَر ما ذُكر، وتحيا معه ما حيي... تكاد ذكريات السجن لا تغادر ذهني في كلّ ساعة وفي كلّ جلسة وفي كلّ سفر... أتذكّر أدقّ التفاصيل: ما أضحك وما أبكى، ما علّم وما وعى، ما أفاد وما آلَمَ، ما أسعد وما أحزن... يبقى أثره، سواء في العقل بما أضاء أو في الجسم بما ترك من علامات وآلام.

هذه ليست حكايتي وحدي، بل حكاية الآلاف من الطلّاب المعتقَلين الذين كَتَبَ السِّجْنُ عليهم الانقطاعَ عن الجامعة، وإنَّ ما حدث معي لَيتكرّر كلّ يوم في سجن غير السجن ومع طالب غير الطالب في تخصّص غير التخصّص، ولكن يبقى أنَّ الظالم واحد والمستبدّ ذا منهجيّة واحدة يعادي أهل العلم فيستفزُّهم.

وإنَّ هذه الحكايات إلى زوال، كما أنَّ الاستبدادَ مَرَضَ هذه الأمّة، إلى زوال إذا ما توحّدت إرادة الأمّة على إزالته، وإنَّ صوت الطالب في زنزانته، وفي جامعته، سيبقى ويُرفع في ميادين الجهاد منتصرًا على كلّ استبداد وسلطويّة، ومعركة الطالب دومًا مستمرة ما استمرّت مؤسّسات العلم...

هي مبادئُ تُوَرَّثُ جيلًا بعد جيل، ولأنّها كذلك، ومهما اشتدّ الظلم، «يبقى الطَّلَبَة هم الحَلّ».